على الغلاف

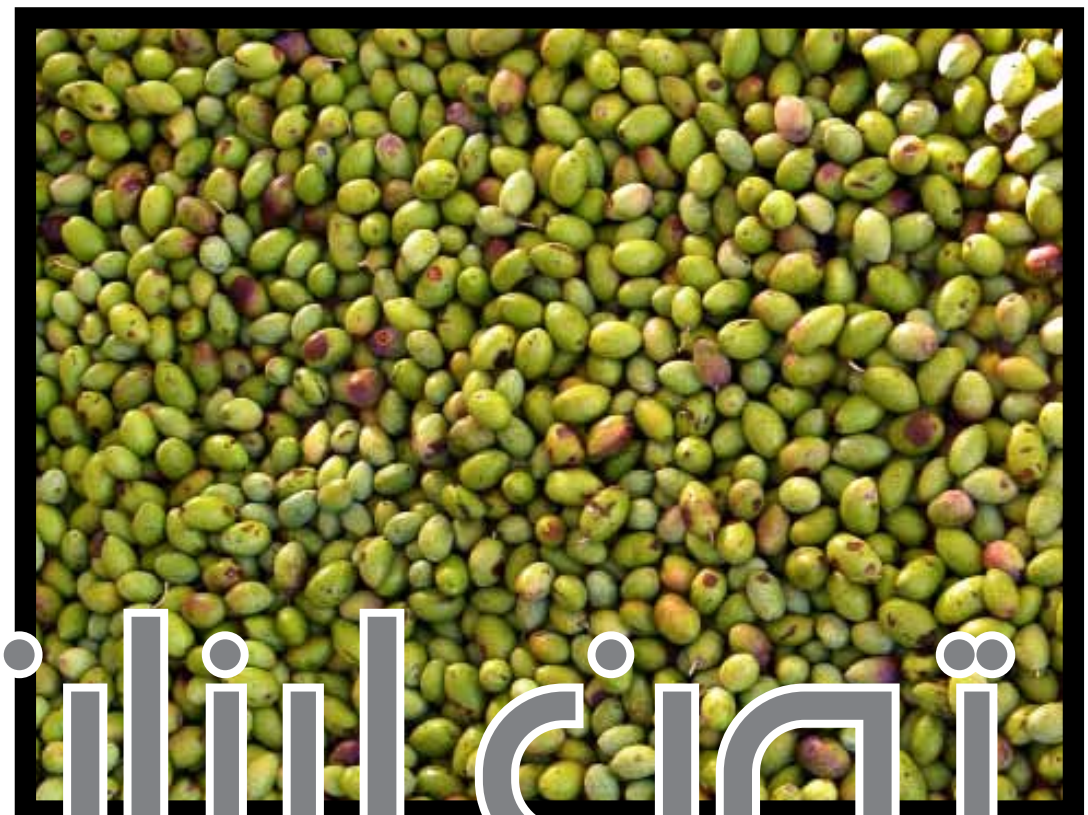

زيتون لبنان ليس بخير

وادي التيم «يخزن» مواسمه

على كتف جبل الشيخ، ناسٌ لا حول لهم ولا قوّة غير كروم رماديّة وشجرٌ كريم. موسم القطف بدأ في قرى حاصبيا، وموسم العام الماضي صامدٌ في الخوابي. والأمر الاعتيادي الآخر: الدولة غائبة عن السمع

فراس الشوفي

لو كان لحاصبيّا علم، لوضعت زيتونة في وسطه. هذه البقعة الذهبيّة من وادي التيم، لا يصيبها من بلاد الأرز سوى الإهمال. وإذا وقف الناس في أقبيتهم ليعدّوا خوابي الزيت الباقية من السنة الماضية، لفهموا ما قصده الرئيس نبيه برّي حين قال: أخشى ما أخشاه أن يترحّم أهالي المنطقة المحرّرة على سنيّ الاحتلال الإسرائيلي.

تلملم حاصبيا جرحها في كلّ عام. هذا الشجر العتيق المعطاء لا يعنيه إن اشترى الجيش اللبناني ثمرة ورده أو لم يشتر، لا يهمّه إن كان في هرمية الدولة اللبنانية من يقدّر أن أناساً يعيشون أو يموتون إن باعوا زيتهم أو كدّسوه في الغرف المظلمة. هذا الشجر يعطي كما اعتاد أن يعطي مذ بدأ الزمان هنا على جبل الشيخ.

«بلّشت تقطف، بلّشت تعصر، كم مدّ عندك؟ قدّي باقي من السنة الماضية؟» هذا حديثهم. المتعبون هنا «من الفجر إلى النجر» في الكروم. لا «جمّيزة» ولا «مونو» في حساباتهم. الحياة تتوقف عندهم «على كم مدّ زيتون» وعلى كمّ التنكات التي قد يضمنون بيعها.

حركة القطف والعصر في قرى حاصبيا والعرقوب بدأت ببطء. بعض القرى كشويّا وعين قنيا وحاصبيا وميمس والخلوات لا تستعجل القطف، فـ«الحصّ» ما زال صغيراً، لأن السماء لم تمطر بعد ما يكفي. بينما صار القطف في راشيّا الفخّار وكوكبا والماري في عزّه. لا يخفي الحاصبانيون أن قطف الزيتون قبل المطر يعطي زيتاً عالي الجودة بينما تتراجع النوعيّة درجة أو أكثر إذا شرب الشجر مطراً، «لكنّ الظروف تحتّم أن ينتظر المزارعون قليلاً علّهم يزيدون غلّتهم»، يقول بسّام كازيلا صاحب إحدى المعاصر في حاصبيّا.

في معصرة بسّام، ينزل الزيت كالذهب الخالص السائل من أسطوانة فضيّة، وبقايا الزيتون على يدي الشيخ سلمان أبو ضرغم كبطاقة هويّته. يتنقّل الشيخ بين المعصرة وخزانات «الستانليس»، وهو يتمتم «اسماالله اسماالله»، وعيناه لا تحيدان عن مراقبة الزيت الذي يميل الأصفر فيه إلى الأخضر، ورائحته تستثير كلّ الحواس.

يتّفق الحاضرون هنا على أن اللبنانيين والعرب عموماً يفضّلون الزيت السميك، بينما يفضّل الأوروبيون الزيت الرقيق الأصفر، «هذا سبب إضافي إلى جانب الإهمال لمنع تصدير الزيت اللبناني» يقول كازيلا.

إلى الشكوى من مشكلة التصريف. ولدى الإصرار على تحديد سبب، يعترف بأن «المرأة تعمل عدد الساعات نفسه، بل إنها تقطف بشكل أفضل وتعتني بحبّات الزيتون، ولكن... هكذا تعوّدنا».

سيدة أخرى، أحضرت رجلاً وزوجته ليساعداها في القطاف، توقفت عند الأمر. بدا وكأنها انتبهت إليه لأول مرة رغم سنواتها التي تجاوزت السبعين «طول عمرنا هيك مندفع. الرجّال بياخذ أكثر من المرا. بس معك حق، ليش؟». هي أيضاً تؤكد أن السيدة تعمل أكثر من زوجها، وتهتم بالزيتون وتنظّفه من الأوراق والحبّات المتضرّرة. «معك حق، غلط»، تقول بأسف.

بالتأكيد ليست هذه المشكلة الأبرز في حاصبيّا والعرقوب ومرجعيون، تعيش على الأرض بين 700 إلى 800 ألف شجرة زيتون، بعضها معمّر يعود إلى الألف الأول الميلادي، على ما يقوله المهندس غيث معلوف مدير المدرسة الزراعية في الخيام. معلوف ابن راشيّا الفخار، والتجوال معه في سيارته الرباعيّة الدفع بين البساتين والكروم الرماديّة، يوصلك إلى زيتونة رحروح. الأخيرة تبلغ من العمر، مع زيتونات أُخر، أكثر من 1700 عام. حتّى الزيتونة المعلم هذه، دمّرت قسماً كبيراً من أغصانها دبّابة ميركافا في اجتياح عام 1978. لم تعرف الميركافا حينها أنّ الزيتون سيتعلّم لاحقاً إطلاق الصواريخ المضادة للدروع.

يحدّثك معلوف عن ذبابة الزيتون. الذبابة تبيض في الشجرة وتتحوّل بيوضها إلى دودٍ ينخر الجذع ويقتل الورق والخشب مع الوقت. العلب الصفراء المعلّقة على بضع زيتونات مصمّمة بشكل يجذب الذبابة ويدفعها إلى الدخول، ثمّ يمنعها من الخروج فتموت بفعل «الأسر». يتابع معلوف عن حياة الشجرة، «يبدأ شجر الزيتون بالعطاء بعد 12 عاماً تقريباً من تاريخ زرعه، ويزيد إنتاجه تدريجاً. يزهر بين منتصف نيسان حتى أيار. وحين تتلوّن الثمرة بين الصفرة والسّواد يكون الوقت المناسب لقطفها، أي 15 تشرين الأوّل تقريباً. الطرق الحديثة تغيّر كثيراً في طرق الزرع والعناية، وتكسِر ما اكتسبه الأهالي بالخبرة المنقولة عن الأجداد؛ فست عشرة زيتونة على مساحة دنم واحد كانت طريقة الزرع في الأربعينيّات، واليوم يزرع بين 40 إلى 45 شجرة في المساحة ذاتها».

> دمرت الميركافا قسماً من أغصان زيتونة رحروح المعمرة عام 1978

يعود السبب الذي يدفع بسكّان هذه القرى لزراعة الزيتون إلى قلّة الأراضي المرويّة. وحسب معلوف، فإنّ ما يقارب 20 إلى 25% من السكّان يعتاشون من إنتاج الزيت والزيتون.

نودّع راشيّا الفخّار عند أبو سعيد وفخّاراته. أشكال ورسوم جبلها السبعينيّ على جرّات وأباريق وتحف في قبوه المظلم. وتحت الصنوبرة الكبيرة زرع في الأواني الفخّارية المكسورة ما يطيب وتشتهي من الحبق والمردكوش والصعتر.

أبو سعيد يريد لصوته أن يصل. على الدولة أن تشتري الزيتون وإلا على الناس النزول إلى الشارع. يمازحك الفاخوري والفلاح الهادئ بكوميديا سوداء، ويقترح أن يضع الناس على تنكات الزيت رسماً يشير إلى خطورة زيت الزيتون وسُميّته، علّ الدولة تهتم به كما تفعل مع التبغ.

أزمة التصريف مشكلة قاتلة بالنسبة إلى المزارعين ومصير هذا النوع من الزراعة. في العام الماضي، قُدّر إنتاج حاصبيا ومحيطها بما يزيد على 120 ألف تنكة، يتراوح تصنيفها بين باب أول، ثاني وثالث، ويذهب البعض إلى القول إن الرقم بلغ 180 ألف مع تنكات غير صالحة للأكل. المفارقة أن قرار الحكومة آنذاك شراء 50 ألف تنكة من كلّ لبنان للجيش اللبناني، نالت حاصبيا منه ما يقلّ عن 5500 تنكة. أي 4,6 من نسبة الإنتاج على أبعد تقدير. ولا يعلم أحدٌ بعد ما خطط الحكومة السحريّة لهذا العام.

زيت العام الماضي ما زال يباع هنا بسعر أقل من الكلفة تتراوح بين 45 و50 دولاراً أميركياً، في حين كان يتراوح السعر العام الماضي بين 100 و110 دولارات. وأزمة التصريف تضاف إليها أزمة كلفة الإنتاج أيضاً، إذ ارتفع سعر العصر وكلفة اليد العاملة بنسبة عشرين في المئة، فضلاً عن كلفة النقل والتوضيب والفلاحة والمبيدات. ولا يمكن أن نعمي العيون عن أزمة زيبار الزيتون. فنهر الحاصباني رئة حاصبيا وأزمة تلوّثه مزمنة. لم تقم بلدية حاصبيا بحلّ حقيقيّ حتى اللحظة غير إجبار المعاصر على استحداث حفر كبيرة وتعبئتها بالزيبار، فيما الحلّ الوحيد هو تكرير الزيبار وتحويله إلى سماد بحسب بعض الخبراء.

باختصار، الحاصباني يركض، ويركض رغيفه المغمّس بالزيت أمامه، فلم تعد تجارة الزيت «أكلة».